Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.26, Issue: 2019

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد السادس والعشرون، 2019م.

أثر القرآن والحديث في مقامات السرقسطي

سنيله حسين
محاضرة اللغة العربية، الكلية الحكومية للنساء، وزير آباد
أ.د. حامد أشرف همدانى
قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور

Abstract:

"Maqama" is a unique genre of Arabic literature and it is also called "rhymed prose" in a highly finished style, famous writer of the fourth Islamic century, Badi-uz-Zaman Hamdhani is known for introducing "Maqama" in Arabic literature. After him, many writers followed him and wrote everlasting "Maqamas".

Abu Tahir Saraqusti is one of the famous columnists (writers) of Spain. He named his "Maqamas" the "Maqmas of Lazoomiyah". Although he was inspired by Allama Hareeri in the art of "Maqama" yet he named his "Maqamas" after Abu-ul-Ulaa Almuarri's "Book of Lazoomiyat". "Maqamas" of Abu Tahir Sarqusti earned the reatest fame among the ones written in Spain. His "Maqamas" consist of many technical and artistic virtues, along with rhetoric qualities. One of the important aspects of his "Maqamas" is that he has benefitted a lot from Islamic history, literature and particularly from The Holy Quran and the sayings of Holy Prophet (peace be upon him), in his inscription, style, words and meanings.

In this article, the influence of Islamic literature on "Maqamas" of Abu Tahir Sarqusti is analyzed. In his "Maqamas",

Qur'anic and Prophetic passages and inclusions are especially highlighted along with Islamic terms and compositions used in Qur'an and Sunnah. It has been explained in this article that in which sense does Allama Sarqusti present, the mosque, which is among the rituals of Islam.

In the end of article, light has been thrown on the way the writer has stated the drawbacks and contradictions of society of his time, and the treatment he has suggested for these drawbacks and defects.

In the beginning of article, definition and interpretation of maqama, beginning and development of "Maqama" writing in Spain, introduction to Allama Sarqusti and his "Maqamas" has been presented.

Key words: Impact of Qur'an, Impact of Hadith, Al-Sarqusti Muqamat

اتفقت المعاجم العربية القديمة على أن مدلول لفظ "مقامة"هو المجلس من حيث هو مجلس، أو الجماعة من الناس. نجد ذلك في لسان العرب لابن منظور،، وفي سواه من أمهات المعاجم العربية.(1)

ثم تطور مضمون الكلمة في العصر الإسلامي، وأصبحت تعني: المجلس الذي يقوم فيه شخص بين يدي الخليفة أو غيره ويقوم بوعظ الحاضرين، أي إن الكلمة بدأت تضم إلى جانب المجلس وجماعة الحاضرين، حديثاً وعظياً، وكلاماً في السلوك والتهذيب، وأخيراً أصبحت تعني المحاضرة، سواء أكان من يقدمها قائماً أو قاعداً.(2)

وهكذا كانت الكلمة يتغير مدلولها حسب الظروف الغالبة في كل عصر استخدمت فيه، ففي العصر الجاهلي الذي يؤمن بالقبلية والطائفية كان مدلولها اجتماعياً، وعندما تغلبت النزعة الدينية إبان صدر الإسلام والدولة الأموية، اتجهت الكلمة اتجاهاً دينياً بالوعظ والإرشاد، وعندما تقدمت الفنون الأدبية

خلال العصر العباسي الثاني، وتعددت ألوان الأدب شعراً ونثراً واتجه الأدب إلى التفنن والإغراق في المحسنات البديعية، اتخذت المقامة مدلولاً أدبياً ظهر على يد بديع الزمان الهمذاني، الذي استخدم لفظ المقامات استخداماً يقصد به نوعاً أدبياً جديداً ظهر في ذلك العصر.

إذا أردنا أن نعرف المقامة في صورتها التراثية في الأدب العربي فهي: "قصة قصيرة الحجم تكتب بلغة مموسقة (إيقاعية) وموضوعها يدور على حدث واحد متخيل (مستلهمة من أحداث الكدية) وشخصياتها الثانوية محدودة (تتمثل في الضحية أو المخدوع الذي تقع عليه حيلة بطل المقامة، وهي شخصيات تتغير من مقامة إلى أخرى)، ويلعب دور البطولة فيها بطل محتال، جواب آفاق، ويشاركه راوية يتعرف عليه إثر كل مغامرة، ويرويها عنه، وتقع أحداثها في حدود مدينة أو منطقة واحدة، وفي زمن لا يتجاوز مقدار يوم وليلة، وغايتها الغوص في قاع المجتمع لتعرية الواقع الاجتماعي، ونقد الطبقات الاجتماعية والأنماط البشرية السالبة".[3]

ويعرف الدكتور زكي مبارك المقامات بأنها: "هي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون"[4]

أما الدكتور شوقي ضيف فيرى أن المقامة: "ليست قصة وإنما هي حديث أدبي بليغ"، و"المقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر، ولعله من أجل ذلك سمّاها بديع الزمان مقامة، ولم يسمّها قصة ولا حكاية، فهي ليست أكثر من حديث قصير، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوّقاً فأجراه في شكل قصصي"[5]

وعرفها الدكتور فيكتور الكك بأنها: "حديث قصير من شطحات الخيال، أو دوامة الواقع اليومي في أسلوب مصنوع مسجّع تدور حول بطل أفّاق أديب شحّاد، يحدث عنه وينشر طويّته راوية جوّالة قد يلبس جبّة البطل أحياناً،

وغرض المقامة البعيد هو إظهار الاقتدار على مذاهب الكلام وموارده ومصادره في عظة بليغة تقلقل الدراهم في أكياسها، أو نكتة أدبية طريفة أو نادرة لغوية لطيفة أو شاردة لفظية طفيفة"[6]

أما الدكتور إحسان عباس فيعرف المقامات بأنها: "قطعة نثرية مسجوعة، قصيرة الفقرات، ذات طول معين لا تتجاوز في طولها مقام واعظ يتحدث إلى جمهوره، وفي الغالب يكون البطل متنكراً، فهي تقع بين (عقدة) و(حل) قصيري الأمد، ويكون الحل إشباعاً للتشويق، ويصبح (الانكشاف) مدعاة للارتياح، وسبباً لطمأنينة النفس[7].

المقامات في الأندلس:

تأثر الأندلسيون بمقامات البديع الهمذاني وخَلفه الحريري تأثرًا جلياً، إذ كان من الطبيعي أن تُثير إنجازاتهما إعجاباً بين الأدباء، وتخلق تيارًا من المحاكاة في ميدان الكتابة عموماً وفي فن كتابة المقامات خصوصاً، وبدخول الأندلس عهد ملوك الطوائف كانت مقامات الهمذاني ورسائله قد انتشرت انتشارًا واسعاً حتى صار الكثير من الأدباء يؤلفون في هذا الصنف من الأدب، وفي مقدمة هؤلاء إبنُ شُهيد الذي كان (من أول الناسجين على منوالها) [8]

إن أثر مقامات الهمداني كان محصورا في دائرة ضيقة، لكن الأثر الأبرز كان لمقامات الحريري التي سرعان ما تداولها الناس على نطاق واسع (ولعل سر ذلك راجع إلى الصلة بين بعض الأندلسيين والحريري)[9] فقد ذكر ابن الأبار أن العديد من الأندلسيين سمعوا الحريري يبسط مقاماته في حديقته ببغداد، ثم عادوا إلى الأندلس لينشروا ما سمعوا.[10] وكان من أول المتذوقين لها الناسجين على منوالها الحسن بن علي بن الحسن البطليموسي، الذي سمع مقاماته منه ببستان ببغداد.[11] وظل الأندلسيون ينسجون على منوال مقامات الحريري، وبالرغم من تأثرهم بالحريري، فقد احتفظت مقاماتهم بميزاتها الخاصة التي حفظت لها شخصيتها سواء في الشكل أم في الأسلوب.

ولم يكتف الأندلسيون بمعارضة مقامات الحريري بل قاموا بشرحها والتعليق عليها، ومن أشهرها شرح أحمد بن عبد المؤمن الشُريشي الذي أخذ المقامات عن الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر الحجري، وحدثه بها الرحالة ابن جُبير الذي رواها عن أبي طاهر الخشوعي تلميذ الحريري، وكذلك حدثه بها أبو ذر مصعب الخشني، ولقي بها كثيراً من الشيوخ الآخرين بعد أنْ شرحها، وأفاد منهم ضبط ما احتاج إله ضبطه. ويحدثنا الشريشي أنه لم يترك شرحاً لها إلا اطلع عليه، وعكف على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً، حتى عثر أخيراً على شرح الفنجديهي، فأعاد النظر في كلِّ ما كان صنعه من قبل.[12] ومن هذا كلِّه صنع شرحه الكبير وشرحين آخرين هما الأصغر والأوسط. ومن الأندلسيين الذين شرحوا مقامات الحريري محمد بن أحمد بن سليمان المالقي الأصل ومنهم عبد الله بن ميمون العبدري الغرناطي.[13] وهذا يصور مدى تأثر الأندلسيين بفنِّ المقامة.

ومن مجموع ما وصمنا من هذه المقامات يستطيع الدارس أنْ يتبين حقائق محددة عن طبيعة المقامة الأندلسية، فقد انتفت من بعضها قصص الكدية والحيلة المقترنة بها، وأصبحت قريبة من فنِّ الرسائل الإخوانية، كما أن كثيراً من المقامات الأندلسية أصبحت وصفاً للرحلات والتنقل في البلاد، وكان بعضها يمثل الاتجاه النقدي أو مواقف المنافرة والمفاخرة، أو يؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالغزل والمدح والهجاء. وأكثرُ الذين كتبوا المقامات في الأندلس لم يراعوا أنْ تكون كِتاباً جامعاً، وانما كان شغلهم إنشاء مقامةٍ واحدة أو اثنتين أو بضع مقامات يضمنونها كتبهم أو رسائلهم النثرية، إلا السرقسطي فإن معارضته للحريري، حتى في الناحية العددية، جعلته ينشئ خمسين مقامة.[14]

المقامات اللزومية للسرقسطي

السرقسطي هو محمد بن يوسف بن عبد الله المازني من أهل سرقسطة، يعرف بابن الأشتركوني، وكنيته أبو الطاهر، سكن قرطبة، وسمع من شيوخها، كان رحالة في طلب العلم، توفي بقرطبة سنة538هـ.[15]

اشتهر السرقسطي لمقاماته التي سماها بالمقامات اللزومية. تُعَدُّ مقاماته أبرزَ ما أنتجته قريحة الأندلسيين في هذا اللون الأدبي. وهي خمسون مقامةً عارض بها السرقُسطِيُّ مقامات الحريري ومتأثرا بطريقة أبي العلاء المعري إذ بناها على لزوم ما لا يلزم، وقد كتب في آخرها أنها المقامات التميمية السرقسطية لأن مؤلفها هو أبو الطاهر محمد التميمي المنسوب إلى مدينة "سَرَقُسْطة" ويعرف بابن الأشْتَرَكُوني نسبة إلى أشتركون من أعمال تُطيلة، ويصرحُ السرقُسطِيُّ في بداية مقاماته بأنه يسير على نهج الحريري بالبصرة وهذه المقامات "أتعب فيها خاطره، وأسهر ناظره، ولزم في نثرها ونظمها ما لا يلزم، فجاءت على غايةٍ من الجودة".(16)

فالسرقُسطيُّ في معارضته لمقامات الحريري رغب في إثبات قُدرة الأندلسيين على إنتاجِ أدبٍ يوازي أدب المشارقة، أدبٍ يماثله أو يعارضه أو يزيد عليه، وهذه الرغبة لدى الأندلسيين في تتبع المشارقة والسير على طريقتهم جعلت منهم رواد المعارضات الأدبية بشقيها الشِّعر والنثر، فهو نوع من إرادة إثبات النفس، وتأكيد الهُوية الأندلسية.(17)

كتب السرقُسطِيُّ خمسين مقامةً على عدد مقامات الحريري. وبطلا مقامات السرقسطي شخصيتين خياليتين هما: السائب بن تمام، والشيخ أبي حبيب، وفي بعض المقامات نجد شخصية ثالثة هي شخصية "المنذر بن حمام" وهو راويةٌ خيالي يتلقى من المؤلف بعض الأخبار والأحداث.

ولم يعطِ المؤلف بعض المقامات عنواناً مُميزا كما فعل بديع الزمان والحريري، إذ كان بعضها يُسمى باسم نوع السجع الذي يغلِبُ عليها، وهكذا سمى المقامة السادسة عشرة بالمقامة المثلثة، والسابعة عشرة بالمرصعة، والثامنة عشرة بالمدّذبجة. أما المقامات الأُخر التي لها عناوين فهي: البحرية، النجومية، الحمقاء، الشعراء، الدُّب، القردية، الفرسية، الحمامية، العنقاوية، الأسدية.

واستخدم السرقُسطِيُّ في مقامات أُخر نمطاً مُغايرا ومتميزا من التسمية،

ورتب المقامات حسب الترتيب الأبجدي، فحملت أسماءً حسب حرف السجع فيها، مثل "الهمزية" و"البائية" و"الجيمية" و"الدالية" و"النونية"، وهذا التنوع في تسمية المقامات يعطي انطباعاً بأن السرقسطي لم يكن مدركاً لأهمية عنونة المقامات.

وتدور أحداث المقامات كُلها ما خلا المقامتين الثلاثين والخمسين حول أعمال الاحتيال المتنوعة التي يقوم بها بطلا المقامة، ومُؤطرا تلك الحيل بمواعظ الموت والحياة الآخرة. ويُخفي السرقسطي حقيقة شخصية شيخة الفصيح الذي يظهر في بيئات متجددة باستمرار، إذ يظهر أحياناً في هيئة شائنة وأخرى في هيئة محترمة، لتلائم الحاجة التي تلوح له.

ولا يضع السرقُسطِيُّ حداً مكانياً لتجوال بطله، بل يتيح له أنْ يتجولَ بحُرية يتسول حيثما يذهب، ولا يكاد يدخل أرضاً حتى يرتحل عنها إلى بلد آخر يحتال دائماً على الأبرياء ممن يلتقيهم في طريقه، ثم ينكشف أمره على يد السائب بن تمام فيهربَ بعد أنْ يترك وراءه مقامةً فيها حياته واحتيالاته. وينقل السرقُسطِيُّ بطله في رحلاته من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، فليس للمقامات أُفقٌ جغرافي مُحدد في ترتيبها، فهو تارةً في مصر، وفي مقامة أخرى نجده في البحرين، وفي المقامة الثانية والعشرين يكون في القيروان، وفي المقامة السادسة والأربعين يكون في طنجة ومن هناك ينتقل في المقامة السابعة والأربعين إلى الهند. وفي المقامة الثامنة والأربعين يكون البطل في الأندلس موطن السرقسطي، وفي المقامة الخمسين يكون في خراسان. ويحكي لنا الراوي كيف جاء ذات مرة وهو يتجول في البلاد إلى بقعة جميلة، هي جزيرة الطريف حيث وجد جماعة من الناس يتحلقون حول شيخ يحكي أساطير تاريخية وحكايات عن ملوك العرب وانجازاتهم مُتلاعباً بمشاعر مستمعيه وهو يسردُ عليهم الحكايات تلاعباً بارعاً بالإشارة إلى جزيرة الطريف مِرارا وتكرارا وبتلاوة الحكايات عن الجزيرة و دورها في فتح الأندلس. وكان أثره على سامعيه كبيرا جداً مما جعلهم كالفراش المتهافت على اللهب، يتبارون في

صبِّ المال عليه كالمطر حتى امتلأت يداه، فأطال إقامته، وأقام في بحبوحةٍ ليلة ونهارا.

وفي المقامة السادسة والأربعين يزور الشيخ طنجة في شمالي إفريقية. ولهذه المقامة مكانتها لأنها من المصادر التي تُوثق مظاهر حياة البربر الاجتماعية وعاداتهم وأغانيهم وطعامهم وشرابهم.

أما مسرح المقامة الثانية والعشرين فهو القيروان حيث وجِد بطل المقامة يتجولُ مُشيداً بأمجاد القيروان التاريخية ويندبُ سوء المعاملة التي عانتها على أيدي البدو.

ولم يكن وصفُ المقامات للأندلس هو الذي أضفى عليها قيمة خاصة، بل كذلك وصفها لبلاد المشرق، ومن الأمور البارزة في هذه المقامات عناية السرقُسطِيُّ باليمن وتاريخها، فأربع من مقاماتيا تدور أحداثها في اليمن.

ويخصص السرقُسطيُّ مقامتين من مقاماته للنقد الأدبي، هما المقامة الثلاثون "الشعراء" والخمسون "الشعر والنثر". وتشكل هاتان المقامتان إضافةً بارزة لمصادرنا الشحيحة لتاريخ النقد الأدبي في هذه الحقبة التاريخية.

ولم تظهر أندلسية السرقُسطِيُّ في مضامين المقامات، حيث تجاهم ما امتازت به الأندلس من المظاهر الثقافية، فَتقرأ مقاماته وكأنك تقرأ لشخصٍ لا تجمعه بالأندلسيين جامعة، ولا تربطه بهم رابطة، ومروره بالأندلس في بضع مقامات كان مرورا عابرا وكأنه غريبٌ عنها، وهي ظاهرة غريبة ألا يظهر لمكان المؤلف حضورٌ قوي في نتاجٍ إبداعي، وقد تكون لرحلاته وتجواله في أرجاء العالم الإسلامي أثرها في ذلك، وقد يكون السبب أيضا يعود إلى كره الأندلسيين الشديد لظاهرة التسوّل والاستجداء التي هي –الموضوع الرئيس في المقامات– وقد قال "المقري" عن أهل الأندلس" :وأما طريقةُ الفقراء على مذهب أهل المشرق في الدرْوَزَةِ، التي تُكسِلُ عن الكدِّ وتحوجُ الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحةٌ عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصًا صحيحًا قادرا على الخدمة يطلبُ سَبوه،

وأهانوه، فضلاً عن أنْ يتصدقوا عليه، فلا تجدْ بالأندلس سائلاً إلا أنْ يكون صاحبَ عذر".[18] فجَعلُ السرقُسطِيُّ مناطقَ المشرق مَسرحاً لبطولاتِ شخصياته يجَنبهُ أي رفضٍ قد يواجهه من قبل الأندلسيين حين يلصق تهمة الكدية والتسول بهم.

ويستعمل السرقُسطِيُّ في مقاماته صيغةً صارمةً من السجع، سار بها على نهج المعرّي في لزومياته من غير أنْ يحدثَ انطباعاً لدى القارئ بالتكلف أو المبالغة. وباستثناء المقامتين الثانية والثلاثين والأربعين، فإن السرقسطي يتجنب عادة الأسلوب المعقد والمبهم الذي يفضله الحريري، إذ أن اختياره لكلماته وعباراته أقل تكلفاً، وزخرفته البيانية أقل تنميقاً.

وانفتحت مقامات السرقسطي على آفاقٍ إبداعية ثرّة، وتجسد فيها ما يسمّى بتداخل الأجناس، بما يُثبتُ مبدأ الحوار بين الأجناس الأدبيةً، من خلال رؤيةٍ إبداعية تُلغي انغلاق الجنس الأدبي على نفسه، وكفايته بها، لذا وجدنا السرقسطي يزاوج بين النثر والشعر في مقاماته، وألغى بهذا التزاوج معيارية النصِّ الأدبي "تلك المعيارية التي تجعلُ من الجنس الأدبي جنساً نقياً، فكلُّ نصٍّ ينفتحُ على نصوص أخرى، يدمجها في بنيته وتمنحه مظهرا مختلطاً ومتجزّءاً"[19]

الكلمات والمفاهيم القرآنية في مقامات السرقسطي:

الأديب دائما يستخدم الكلمات والحروف المضمرة في قلبه وذهنه لإظهار بيانه، وهذه الكلمات بدأت تجمع تحت شعوره منذ نعومة أظفاره، يحفظها من أبويه، ومن أسرته ثم من البيئة التي نشأ فيها وترعرع. فالأديب المسلم لا محالة يحفظ الكلمات الدينية والمفردات القرآنية والنبوية من بيئته وممن حوله. فلذلك نجد الأدباء المسلمين يستخدمون الكلمات الدينية وخاصة القرآنية في كتبهم ودواوينهم، حتى تعد النصوص الدينية أكبر مرجع للكلمات والمفردات.

وفي بعض الأحيان يكون هذا شكل من أشكال الاقتباس لأن النقاد كانوا يرون أن الاقتباس لا يكون بالكلمة المفردة، وإذا وردت في تعريف الاقتباس

"كلمة" فإن المراد بها الكلام المركب، وليست مفردة في حالتها المعجمية، إلا إذا كانت كلمة مميزة، كأن تكون من الأعلام القرآنية أو اسم سورة أو حروف افتتاح السور[20]. فتواجد المفردات الدينية المشهورة في كلام أحد من الأدباء نوع من الاقتباس أو التناص أو الامتصاص الديني.

تربى السرقسطي في أسرة مسلمة وبيئة دينية، فأثر النصوص الدينية جلي في نثره وشعره، ويظهر ذلك للباحث أثناء دراسة أدبه، وإن كان موضوع مقاماته لايكون دينياً –غالباً– ولكنه يستعمل الكلمات الدينية لإظهار غرضه الأدبي بروعة وبراعة.

لقد تضمن مقامات السرقسطي حشداً كبيراً من المفردات ذات بعد ديني ومصطلحات استخدمها القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، وهذا يدل على أن الكاتب ذو ثقافة دينية واسعة وقد قام بامتصاص دلالات المفردة المتناصة، وذلك لإعطاء الخطاب الأدبي قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي بعد أن يمنحها رؤيته الخاصة. وهذا التوجه لدى السرقسطي هو توجه واع ومقصود لم يكن صدفة، إذا علمنا أنه لاتكاد مقامة من مقاماته تخلو من هذا الأثر.

وإذا أمعنا النظر في هذا الدعاء الذي جاء به السرقسطي في المقامة الأولى يتضح لنا فكره الديني وإيقانه بعظمة الله وقدرته:

"اللهم يا رافع الإعدام، وجامع الندام، وعالم الخفيات، وواهب الحفيات، وملطف الأسباب، ومؤلف الأحباب، متعهم بالمسرات والحبرات، وألحفهم بالمروط والحبرات، وأفض عليهم جدواك، وزحزح عنهم بلواك، واحرسهم عن الغير، ولاتجعلهم عظة الأمثال والسير، وأرسل عليهم من سترك مديداً، وخذ بهم من أمرك سديدا"[21]

ومن عبارات السرقسطي في الحمد لله والثناء عليه قوله في المقامة السابعة البحرية، حيث قال: "وسبحان من خلق الأشياء بتاتا، وصيرها جموعاً وأشتاتاً،

وجعل فيها النفع والضرر، وناط بها الأمن والغرر"[22]

ولعل مركب "سم الخياط" في قول السرقسطي في المقامة الخامسة: "والناس في أضيق من سم الخياط"[23] مستلهم من قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[24] وقول السرقسطي في نفس المقامة: "وارفعوا الظن والريب"[25] من معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[26] واستخدم السرقسطي كلمة "الشراة" للخوارج في المقامة الخامسة[27]، سموا أنفسم شراة لأنهم أرادوا أنهم باعوا أنفسهم لله آخذا من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[28] وقول السرقسطي: "وإنما للمرء ما قدم"[29] مستلهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[30]

وقول السرقسطي في المقامة السادسة: "فلما انكشفت عنه الضراء وغازلته السراء، طوى كشحاً على ما التزم واستقال فيما عليه اعتزم كلا، أنه من الخالق لقريب وإنه مما كسب غداً لحريب"[31] يوحي إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[32]

وقوله في المقامة الثامنة: "لكنه أمهل وما أهمل"[33] مستفاد من الحديث الشريف: (إن الله يملي، (وربما قال يمهل) للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)[34] وقوله في نفس المقامة: "ولابن السبيل والضيف النزيل حق في الكتاب والتنزيل"[35] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً

مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[36]

لم يكن الغرض الديني من المقامات اللزومية غرضاً مستقلاً بذاته، بل تجده غالباً ما يكون مع الأغراض الأخرى ويمهد لها، ولذا لا تكاد تخلو مقامه منه، فالطابع العام لهذهِ المقامات هو الطابع الديني[37]، الذي يميل إلى بث النصح والارشاد والتوعية بأمور الدنيا والآخرة، مع الاستغفار من الذنوب، والتقرب إلى الله عز وجل، وابتغاء مرضاته، لكن في المقامة الموفية (خمسين) نجد الدعاء والالتجاء إلى الله غرضاً قائماً بذاته، فغاية السدوسي أن يعلن توبته، طالباً للمغفرة، فجاء دعاؤه وتدينه على وجه الغاية لا الوسيلة.

يقول الشيخ السدوسي بعد إعلان توبته: "اللهم إنه كثر نسياني، وطال عصياني، وتكاثفت ذنوبي، وارقت سلجي وذنوبي، وأفنيت عمري في الأضاليل، وتسوفت بالأماني والتعاليل، حتى قيدني الهرم، وأوثقني البرم، وناهزني الحمام، وعاجزني الجمام."[38]

"اللهم إليك رجعت، وبذكرك سجعت، ونوالك انتجعت، اللهم إن فضلك الواسع الرغيب، فاجعلني ممن لا يخيب عن رحمتك ولا يغيب"[39].

فسمة الخضوع والاستكانة لله واضحة مع ما تحمله من تناغم إيقاعي حزين عم الدعاء.

الاقتباس والتضمين عن القرآن الكريم والحديث النبوي:

الاقتباس هو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزيينًا لنظامه، وتضخيمًا لشأنه[40]، فهو تضمين الكلام كلمة من آية أو آية من آيات كتاب الله[41]، أو من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم[42].

وأصبح تعريفه اصطلاحًا "تضمين الكلام نثرًا، أو نظمًا شيئًا من القرآن، أو الحديث النبوي الشريف"[43]

والتضمين عند علماء العربية إيقاع لفظ موقع لفظ غيره، ومعاملته لتضمنه معناه، واشتماله عليه، ومنها أن يكون بعد الفاصل متعلقا بها[44].

والتضمين عند البلاغيين له تعريفات كثيرة[45]، وهي كلها تكاد تعود إلى معنى واحد، وهو "استعارة كلام الأخير وإدخاله في الكلام الجديد"[46].

وبتفصيل أكثر هو: "أن يأخذ الشاعر أو الناثر آية، أو حديثا، أو حكمة، أو مثلا، أو شطرا، أو بيتا من شعر غيره بلفظه ومعناه"[47]، أو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر، أو شعر نادر، أو قصة مشهورة، من غير أن يذكر القائل.

اقتبس السرقسطي في مقاماته من القرآن الكريم والحديث النبوي كما فعله السابقون منه في هذا المجال. وهذا مما جعل فن المقامة متميزاعلى الفنون الأخرى الأدبية.

فقول السرقسطي في المقامة الأولى: "وعوضت من العذب المجاج بالملح الأجاج"[48] متضمن لقول الله عزوجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[49]

وقوله في نفس المقامة: "ثم تتبوأ القصر المشيد"[50] متضمن لقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[51]

وقول السرقسطي في المقامة السادسة: "هل على قلوبكم أقفال"[52] متضمن لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[53] وقوله في نفس المقامة: "فلا يشغلنكم حصاد البذر عن أداء النذر، فأوفوا بتلك النذور"[54] يوحي إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[55] ويبني المؤلف قوله: "فوالذي فلق الحب والنوى"[56] على الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[57]

وقوله في المقامة السابعة البحرية عن البحر: "قد من الله به على عباده، حين سخره وقدم ذكره تارة وأخره وجعله مظنة لابتغاء خيره ومكانا"[58] تضمين

لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[59] وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ هِوَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[60] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[61] وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[62] وقول السرقسطي في نفس المقامة: "وقد هبت الرياح بين يدي الرحمة بشراً"[63] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[64] قوله: "وقد وفى بعهده فأوفوا بالعهود"[65] مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِإِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[66] وقوله: "والله أكرم شاهد ومشهود"[67] مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[68]

فقوله في المقامة الأولى: "واعطفوا بالفواصل وارحموا عزيزاً ذل"[69] مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ارحموا عزيزاً ذل)[70]

وقول السرقسطي في المقامة الرابعة: "الحكمة للمؤمن ضالة"[71] مستفاد من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)[72]

ويفيد السرقسطي قوله: "فأنا أحدو منه بجمل ثفال"[73] من الحديث الذي أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله: "فكنت على جمل ثفال"[74]

ويفيد السرقسطي قوله في المقامة السادسة: "أمن الوعط إلى النعظ، ومن الكور إلى الحور"[75] من الحديث النبوي الشريف الذي روي عن عبدالله بن سرجس، كان صلى الله عليه وسلم إذا سافر قال: (اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال)[76]

وقول السرقسطي في المقامة السابعة عن البحر: "وصير ماءه الطهور وميتته الحلال"[77] مستفاد من الحديث النبوي الشريف الذي روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ)[78]

المسجد في مقامات السرقسطي:

لقد اتخذ السرقسطي المسجد مسرحا لبعض مقاماته يلجأ إليه السائب في دخوله إلى أي بلد يشعر فيه بالخوف والاغتراب أو السأم والضجر، فيبدأ بالانحراف عن بعده الديني المألوف، ليتخذ أبعاداً سياسية واجتماعية، ذلك أنه كان للمسجد مكانة مهمة في حياة المسلمين، على مر العصور، وذلك لما له من مهام سياسية ودينية واجتماعية يقوم بها، فهو مكان العبادة، والمدرسة التي يتلقون بها علومهم فضلاً عن أثره في التشريع والقضاء والحض على الجهاد على ألسنة الخطباء والفقهاء، وملجأ لكل ابن سبيل، فالسائب في المقامة الخامسة يحل بلد دمياط فيجد الناس في أضيق عيش، جزاء ما بها من فتن وخلافات.

يشعر بالحزن والضجر يضيق بتلك الحال ذرعا فسار إلى مسجدها الجامع حيث ملتقى اليائس والطامع على حد تعبيره: "حللت بلد دمياط، والناس في أضيق من سم الخياط. وقد كثرت بها الأرجاف، وتوالت السنون العجاف وتمكن الاختلاف، وأعجز الانتظام والائت الاف. قال فلفني الحزن في شملته، وضمني إلى جملته. فضقت بتلك الحال ذرعاً، ولم أستدر من قعود الأنس ذرعا، وقلت ما أكدره حوضاً، وأجدبه روضاً. فجعلت ألاطف النفس وأصابر، وأخادعها حيناً وحيناً أكابر. وأقول مالك والحزن، وما ركبت السهل منها ولا الحزن، إنما أنت طيف طائف، وبرق صائف. تتسلخ عنها انسلاخ الهلال من المحاق، ثم ندعو لها بالويل والإسحاق. ولم أدر أن المرء يعديه الجوار ويثنيه الجوار. فأبت القبول، ولا الطبع المجبول، فسرت إلى المسجد الجامع، حيث ملتقى اليائس والطامع.[79]

فيجد فيه فتى كالكوكب اللامع: "وإذا بفتى كالكوكب اللامع، ذي منظر خاشع وجفن دامع. يجيد الإنشاد والإنشاء، ويلعب بالعقول كيف شاء. وقد وقف على قول الأسماع، وصرف إليه الأطماع. فما زال يهفو بالألباب، ويدعو إلى الإقامة والإلباب. وهو يهتف بقول يأخذ بالقلوب، ويفوت شأو اللحوق والطلوب."(80)

فيلقي خطاباً يتلمس به أوضاع الناس في تلك البلدة ويحثهم على تصفية القلوب ونبذ الأحقاد: "يقول أيها الناس ما استديمت النعم بمثل الشكر، ولا توقيت النقم بأوفى من الذكر. وإن الذي أرى بينكم من الذحول، أشد مما ألم من المحول. وما تأكد من الإحن، أعدى من المحن. فطهروا الجيوب، وأخلصوا الغيوب. وارفعوا الظن والريب، وإلا فاستشعروا الحرب والريب. واعلموا أن تشتت الأهواء، يرفع عنكم بركة الأنواء. وفيم التدابر والبغضاء، وهلا الصفح والإغضاء. تأمموا الأمم السوالف، وتوقعوا المهالك والمتالف. وإذا استولى الشقاق والخلف، فسيان الواحد والألف. وقديماً ظهرت الأخلاف على مساوئها، وقهرت الألاف عزة مناوئها. فصلوا أسبابكم، وعظموا أربابكم."(81)

وقال: "أين النهى والأحلام، وفيم التظالم والإظلام. أما آن لليل الغي أن تتجلى أحلاكه، ولنظم البغي أن نتنثر أسلاكه. وأن يستفظع الجاني جناه، ويأسف على ما اقترفه وجنا. وأن يجدد متابا، ويسأل ربه إعتابا. فلعله وعسى، أن يلين منه ما قد عسا. وينهل ما جمد، وينير ما خمد، فالرجاء منه واجب، وليس دون الله حاجب."(82)

بعيداً عن الهدف من وراء هذا الخطاب عند الفتى والذي يتضح الهدف منه في نهاية المقامة، فإننا نجد أن هذا الفتى يصطنع خطابه هذا من واقع حياة هؤلاء الناس في تلك البلد، فالخلاف السياسي والاجتماعي أثر سلباً في حياتهم، إذ أصبحوا يعانون من الضيق والضجر والفقر، فكان المسجد وسيلة استخدمت من أجل حثهم على وقف الذي بينهم من فتى وخلافات ونبذ كل الأحقاد

وذلك حتى يرضى عنهم الخالق ويعم عليهم خير السماء، فنجد المسجد هنا يؤدي دوراً سياسياً واجتماعياً في آن معاً.

ونجد البعد السياسي يتمثل في شخص القاضي الذي يمثل السلطة القضائية في الري، فقد اتخذ المسجد مقراً يمارس من خلاله المهام القضائية الموكلة إليه يقول: "دعتني دواعي الغي إلى أرض الري. فأقمت فيها والبطن خميص، والثوب قميص أعلم أني الغريب، فأستريب. وأني الأسير فلا أسير. ألمح فلا أطمح، وأسمع فلا أطمع. وللحر إحزان وإسهال، وللدهر إعجال وإمهال. إلى أن مررت بمسجد فيه ضجاج وجدال واحتجاج. وإذا بخصوم يختصمون إلى شيخ زون، ذي حكم وصول. فتأملت قضاياه، وتوسمت سجاياه. فإذا بها تدور على مجون. وبقيت إلى أن جنح الأصيل، وحن إلى عطنه الفصيل."[83]

والملاحظ على المسجد لدى السرقسطي أنه يفتقر إلى الوصف المعبر، إذ كان وصفه له على لسان السائب وصفاً سريعاً مقتضباً: "فقصدت بعض المساجد فوجدت الناس من راكع وساجد"[84] فهذا الوصف السريع عاجز عن إعطاء أية صورة يمكن أن يتمثلها القاريء ويستطيع أن يستخرج منها البعد الدلالي لهذا الإطار المستحضر هنا في هذا النص، فالأبعاد الدلالية للمسجد تستخرج من واقع الأحداث وأفعال الأشخاص لامن خلال رسم صورة حية له على لسان الراوي.

وأما الملاحظة الثانية، فهي إضفاء الجانب السلبي على الشخصيات الرئيسية في هذا المكان الفني الخطيب في المقامة الخامسة والإمام في المقامة الحادية والعشرين والقاضي في المقامة السابعة والعشرين، فإذا قلنا إن عمق الحيلة يتطلب ذلك، فهذا أو لا شك فيه.

ولكن السرقسطي عرض لنا هذه الشخصيات والتي تمثل بعضاً من شرائح المجتمع فالفتى على الرغم من أنه تلمس بؤرة المعاناة لدة أهل دمياط وحاول أن يتلمس طريقة في التأثير عليهم من خلالها لينال ما يريد، فظاهر الأمر

النصيحة والإرشاد وباطنة مآرب خاصة لمنفعة خاصة.

وأما الإمام، فهو إمام ذو وجهين متناقضين، إمام يؤم الناس يهلل ويكبر ويتضرع وتظهر عليه سمات الزهد في النهار، وصاحب لهو ومجون في الليل، وأما القاضي فإنه خائن مرتش ينطبق عليه المثل: من مأمنه يؤتى الخطر.

التناقضات في سلوك الناس:

ولم تقف المقامة عند تناول ظاهرة التناقضات في سلوك الناس وتصرفاتهم، وإنما كان للأديب موقف الإنسان الناقد من هذه السلوكيات، ذلك أن أية مقامة من مقاماته لم تخل من نقد اجتماعي وأخلاقي لواقع العصر الذي عاشه الأديب، فإذا كان السرقسطي قد رسم صورة الواعظ الذي يصدر في وعظه عن تقوى وورع وإيمان صادق برسالته التي تروم الهداية والصلاح، فإنه عرض في الوقت نفسه صورة الواعظ المزيف الذي يلبس قناع الصلاح والتقوى، ويتزيى برداء الزهد والتنسك؛ لتحقيق مآربه الشخصية.

ففي إحدى المقامات يتخفي المقامي في صورة الواعظ التقى والولي الصالح، فيسرق أمتعة المصلين وأموالهم، يقول في أسلوب قصصي ممتع : "إنه صلى معنا العشاء، وأتى من حسن القول بما شاء، فعطف منا معاطف وجوانب، وأسال منا متالع ومذانب. وزعم أنه في غد راحل. وأن سوف تطويه المراحل، وسأل المبيت في المسجد، مع كل منهم مثله ومنجد، فأكرمنا عشاءه ووصلنا رشاءه، وأرحنا من نصبه وعيه، وقمنا بشبعه وريه .فلما أصبحنا لصلاة الصبح، عثرنا من أمره على قبح، ووجدنا من كان معه قد سلبه ريشه، وثلل عريشه"(85)

ثم ما لبث المقامي أن عاد وتنكر في زيّ الوعاظ إمعانا في إخفاء شخصه "إلى أن قام في هذه الجماعة فتلثم وتلفع، وتوسل بالكتاب وتشفع، وأخذ في وعظ وتحديث وقديم من الخبر وحديث، فأمال النفوس إليه بكل مميل، وأسرعت نحوه بوخذ وذميل، ونحن مع ذلك نألف مواقع نجمه، ونأنس بعطفه للكلام ورجعه"(86)

يبدو أن السرقسطي كان يرمي من وراء ذلك إلى كشف التناقض الكبير بين سلوك الواعظ الزائف ودعوته الخلقية؛ بقصد تعرية هذه النماذج والسخرية من سلوكهم المتناقض.

يتناول الكاتب في بعض مقاماته الوعظية ظاهرة زهد المجان، فيعرض حياة الترف والمجون التي انغمس فيها بعض أفراد المجتمع، ثم يصور صحوة الضمير عند ذوي النفوس الحية والضمائر اليقظة، ويسجل ما يدور في نفوسهم من صراع بين الرغبة في التمادي في حياة العبث واللهو وبين نيتهم الصادقة في التوبة وهجر الذنوب، معبراً عن ذلك بطريقة البوح الذاتي التي تعتمد المكاشفة والمصارحة بعيداً عن الخداع والتمويه، يقول:" أقمتُ ... أخبطُ من ليل الغواية داجياً، واستصحب من خدن الصبابة مداجياً، وأسير في ميدان البطالة واضعاً أو ناجياً.. إلى أن نفد العمر والوفر، ودار السماك والغفر، فأرمعت إقلاعاً، ورجوت اضطلاعاً، وحنيت على التوبة جوانح وأضلاعاً، وبقيت لا يقربى قرار، ولا يعتادني من النوم إلا غرار، ولا ينفح من الروض رند ولا عرار، تفكراً في الموت، وحذراً من الفوت، وارتقاباً للصوت"(87)

وتعد ظاهرة التحلل الخلقي من الظواهر الاجتماعية التي عالجها السرقسطي، ذلك أن المقامة تعد مرآة صادقة تعكس الحياة الاجتماعية في مختلف أبعادها وأشكالها، فالقارئ المتمعن يكتشف أن الأديب يصور جانباً من جوانب المجتمع وهو جانب التحلل الخلقي، الذي يعد أثراً من الآثار التي ورثها المجتمع المرابطي عن مجتمع عصر ملوك الطوائف الذي سبقه، ففي إحدى المقامات الوعظية يستمع بطل المقامة الذي تبدى في صورة واعظ إلى اعتراف ذاتي لأحد المجان يذكر فيه ما ارتكب من أوزار، ويندم على ما اجترح من آثام، ويطمع في رضا الله ومغفرته، يقول:"... أنا من جملة نقارف الذنوب، وترجو من فضل الله تعالى السجل والذنوب، وتواقع الخطايا، وتركب الجرائم رواحل ومطايا، ثم ترجو من ربها المواهب والعطايا، سمعنا تضرعك وابتهالك، فخشينا أن أمراً ما هالك،

فجئنا نرجو يمن جوارك، وبركة حوارك"[88]

يصور السرقسطي نمطاً آخر من أنماط السلوك البشري، إنه صاحب التوبة الكاذبة أو المترددة، حيث ينكث فيها التائب وعده، ويعود إلى عبثه ومجونه "كنت قد ودعت الصبا والصبابة، وترشفت الشفافة منها والصبابة، واعتزمت الإنابة والإقلاع، وحنوت على التوب الجوانح والأضلاع .. حتى إذا ساورتني سورة الجريال، ولقحت حرب صبابتي عن حيال، فراجعتها بعد التطليق، وقابلت عبوسها بوجه طليق"[89]

الواقع أن النقد الاجتماعي يعد من أبرز البواعث التي حفزت السرقسطي على أن يبدع مقاماته، فهو يقدم نقداً اجتماعياً متنوعاً لمناحي الحياة في المجتمع الإسلامي في عصره؛ ذلك إن أعظم رسالة للأديب هو أن يسعى إلى تلمس أمراض المجتمعات ليعالجها، ومن ثم يأخذ بها الى طرق الوئام والتطور والصلاح البشري، وهذه هي غاية الأدب سواء أكان شعراً أم كان نثراً، وقد عولجت أمراض كثيرة سادت المجتمعات بألوان من الأدب من مثل الأمثال والحكم المتناقلة، والوعظ والإرشاد.

اتخذ المقامي من موضوع الوعظ وسيلة إلى الصلاح البشري، فسلك طريق الدعوة الى التزهيد في متع الحياة الدنيا والتذكير بالموت والآخرة، فبطل المقامة هو أديب شحاذ أوتى حظاً من البلاغة والبيان استخدمه في وعظ الناس وتحذيرهم من عقاب الله، وهو غالباً ما كان يتخذ من هيئة الزهاد الوعاظ ولباسهم قناعاً يُعمى به حقيقته، فكان يظهر في صورة شيخ واعظ، وولي صالح يتزى بثياب خَلقَة وأسمال بالية يخطب الناس، ويعظهم بأسلوب شائق رشيق.

من يتتبع السرقسطى في مقاماته الوعظية، يجده قد أبدى مهارة فائقة في عرض مواعظه وتوجيهاته الوعظية، إذ غالباً ما كانت الشخصية المقامية تتنكر في صورة الولي الصالح، والعابد الناسك الذي يزهد الناس في الدنيا، ويحبب إليهم الآخرة، ويذكرهم الموت والثواب والعقاب، ويحثهم على التوبة وهجر الذنوب

والمعاصي، ويحض على التجمل بمكارم الأخلاق من قناعة وصبر وسخاء وتقوى.

إن قراءة فاحصة للمقامات اللزومية، تكشف أن مبدعها السرقسطى برع في رسم صورة متكاملة الأبعاد لمعالم شخصية بطل المقامة وملامحه، فهو الواعظ الزاهد والولي الصالح من حيث هيئته ونغمات صوته ومهارته في الوعظ والإرشاد والتوجيه الديني، فهو حريص على إظهار بطله بصورة الواعظ التقى الذي يوقظ الغافلين، ويقودهم إلى الهداية والإيمان.

الهوامش والمصادر

1. ابن منظور، الأفريقي، محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط1، 1410هـ-1990م. ج9، ص 35. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط ، استانبول: دار الدعوة مؤسسة ثقافية للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، 1410هـ_1989م. مادة (قوم)، ج2 ص768
2. بديع محمد جمعة: دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1980. ص226
3. محمد النجار: النثر العربي القديم، الكويت:مكتبة دار العروبة، ط2، 2002 م. ص 282
4. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2010م. ص185
5. شوقي ضيف: المقامة، القاهرة: دار المعارف، 1954م. ص 8
6. فيكتور الكك: بديعات الزمان، بيروت: دار المشرق، ط2، 1971م. ص 48
7. عصام أبو شندي: نقد النثر العربي في كتابات إحسان عباس، عمان: دار الشروق،ط1، 2006م. ص 114
8. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، بيروت: دار الثقافة. ط5، 1978م. ص243

9. المصدر نفسه
10. القضاعي الأندلسي، محمد بن عبد الله بن أبي بكر: التكملة لكتاب الصلة، الجزائر: مطبعة الجزائر، 1919م. ج1 ص16، ج2 ص732
11. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص304
12. الشريشي: شرح المقامات الشريشي، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1953م. ص22-23
13. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص243
14. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص247
15. ينظر في ترجمته: الصلة لابن بشكوال، ج2 ص588، الأحاطة في أخبار غرناطة، ج2 ص521، الأعلام للزركلي، ج8 ص22
16. السرقسطي، أبو الطاهر محمد بن يوسف: المقامات اللزومية، بتحقيق الدكتور حسن الوراكلي، عمان، الأردن: جدارا للكتاب العالمي، ط2، 2006م. ص17
17. يونس طركي سلوم البجاوي: المعارضات في الشعر الأندلسي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2008م -1429هـ. ص70-73
18. التلمساني، المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1408هـ-1988م. ج1 ص220
19. عبد الملك أشهبون: إدوار الخراط وقضايا تجنيس النصوص السردية، مجلة العلوم الإنسانية، كلية الآداب، جامعة البحرين، العدد 16-17، 2009م. ص65
20. حكمت فرج البدري: معجم آيات الاقتباس، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م. ص 10
21. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص 19
22. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص68
23. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص47
24. سورة الأعراف، الآية 40
25. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص48
26. سورة الحجرات، الآية 12

27. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص48
28. سورة البقرة، الآية 207
29. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص50
30. سورة النبا، الآية 40
31. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص58
32. سورة يونس، الآية 22-23
33. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص79
34. البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ. رقم الحديث: 4686، مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار الكتب العلمية. رقم الحديث: 2583
35. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص80
36. سورة التوبة، الآية60
37. إحسان عباس: النثر في الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين، ص 344
38. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص462
39. المصدر نفسه
40. الرازي، فخر الدين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق إبراهيم السامرائي ومحمد بركات حمدي أبو علي، عمان: دار الفكر للنشر، 1985م. وهناك تعريفات عديدة لهذا الفن في كتب البلاغة والأدب فينظر للتفصيل: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1983م. مادة (اقتباس)، ج 1 ص 270-274
41. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية، لبنان: دار الجيل، 1987م. ص 519
42. الحلبي، شهاب الدين محمود: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان موسى، بغداد: دار الرشيد، 1980م. ص 323. القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عليبو ملحم، بيروت: مكتبة الهلال، ط2، 1991م. ص342.

القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق يوسف على طويل، دمشق: دار الفكر، 1987م. ج2 ص 342.

43. المناوي، محمد عبد الرؤف: التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية، دمشق: دار الفكر المعاصر، 1410م. ج2 ص 81
44. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة (ضمن)، ج1 ص 544
45. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، ج2 ص 262-264
46. نفسه، ج2 ص263
47. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج2 ص 263
48. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص 19
49. سورة الفرقان، الآية 53
50. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص20
51. سورة الحج، الآية 45
52. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص59
53. سورة محمد، الآية 24
54. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص59
55. سورة الحج، الآية 29
56. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص59
57. سورة الأنعام، الآية95
58. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص68
59. سورة النحل، الآية14
60. سورة إبراهيم، الآية 32
61. سورة الجاثية، الآية 12
62. سورة الإسراء، الآية66
63. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص69

64. سورة الأعراف، الآية57
65. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص71
66. سورة الإسراء، الآية34
67. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص71
68. سورة البروج، الآية03
69. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص19
70. حديث رواه السليماني في الضعفاء، وقال ابن الجوزي: يعرف من كلام الفضيل بن عياض. انظر الدرر المنثور، ص19. حاشية المقامات اللزومية للدكتور حسن الوراكلي، ص22
71. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص41
72. الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي (الجامع الصحيح سنن الترمذي)، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي. رقم الحديث:2687
73. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص48
74. البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري ، رقم الحديث:2309
75. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص60
76. الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذيرقم: 3439
77. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص68
78. أبو داؤد، السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داؤد، بيروت: دار الكتب العلمية.، رقم:83
79. السرقسطي: المقامات اللزومية، ص49-50
80. المصدر نفسه، ص50-51
81. المصدر نفسه، ص51-53
82. المصدر نفسه
83. المصدر نفسه، ص321-323
84. المصدر نفسه، ص13-21-27-29

85. المصدر نفسه، ص172-173

86. المصدر نفسه، ص 173

87. المصدر نفسه، ص206، 207

88. المصدر نفسه، ص188

89. المصدر نفسه، ص241

*_*_*